الدكتور يحيى شامي

قراءة في كتاب:" المسافر و الكوتا"

توفّرْتُ على قراءة كتاب "المسافر والكوتا" لمؤلفه الأستاذ إسماعيل علي بيضون، فتابعت فصوله فصلاً فصلاً، وسطوره سطراً سطراً، وكلماته كلمةً كلمةً... ثم ماذا؟

أهو كتاب رواية؟ وفنُّ الرواية هو السائد المهيمن على فنون الكتابة الأدبية اليوم، وقد أخذ المؤلف بضغثٍ منه، أم هو كتاب ينتسب الى صميم ما يعرف بأدب السيرة الذاتية، أو أدب الرحلة ... سمِّ ذلك ما شئت، وقد أخذ بضغثٍ آخر من ذينك اللونين اللذين هما الأوفر حظاً في الكتاب. كيف وقد أبحر في عبابهما أيّما إبحار، ذلك المسافر الحفيّ بالمكان المسكون والزمان . وبالحنين مهما طال السفر أو طالت الهجرة بعيداً عن البلد الذي ولد ونشأ وترعرع فيه، عنيتُ لبنان...

كان ذلك بين لَدُن أن وطئت قدما المؤلف ذات يوم مجاهل تلك القارة المسمّاة بالقارة السوداء، ما همّ أو السمراء، وما كان زاده سوى تلك " الكوتا" التي هي نوع من الإقامة المؤقتة لا القانونية . فما بعُد بنفسه إلا وهو رهين محبسين إثنين: إما الخضوع الكامل لإرادة من تفضّل عليه بتلك "الكوتا"، وإما العصيان أو التمرّد على ذلك الواقع المحفوف بالأخطار وليس أيسرها تلك الحمّى الخبيثة المتواصلة حمّى الملاريا الأفريقية التي لازمته

طويلاً ما جعله ذات ليلة ليلاء ، وبحسب تعبيره، يفتقد معنى وجوده ككائن آدميّ، ويرى أن كل الأحلام ماتتفي ذاته قبل ولادتها، وأن كل تطلعلته حتى طعامه ونومه ولباسه وكلّ أشيائهالصغيرة الصادرة عنه باتت ملك تلك الحمّى اللعينة، وملك ذلك السجّان المتمكّن القادر على شدّ الخناق عليه بكلتا يديه القويّتين الاثنتين...

وعُدّ عن هذا ، وذرِ الحديث عن الحمّى وحمّياها، و"الكوتا" وما حفلت به من هموم ومتاعب وأشجان ذات ألوان ، وخذ بيدي الى مغاني الأدب، مجاني الكتابة، فيا الله ما كان أمتع حديثه، وأنصع بيانه، وأجمل كناياته وتشبيهاته واستعاراته التي دلّ عليها وصفه لذلك المشهد، مشهدِ ما قبل مغيب الشمس، لمّا أن راحت تتهاوى في الأفق الغربي، وهي تلملم جدائلها الذهبية على صفحة ذلك الأفيح الأزرق الذي هو الأطلسيّ ببياض ربد أواذيّ أمواجه الملامسة لأقدام تلك الصخور الدهريّة وهي تعانق جذور أشجار تلك الغابة الإستوائية من قبل أن يطبق على الشمس ظلام الليل الإستوائي متلبسة بأحضانه ، غائرة في عمق خلجانه...

وعُدّ عن هذا ثانية، وذرِ الإنشاء جانباً، وخذ بيدي الى مضامين الكتاب التي لم يطغِ عليها الإنشاء، فلله ما كان أحفل وأغنى هذا الكتاب بما اشتمل عليه من معلومات تتعلق بعبادات وعادات وجغرافية وتضاريس ذلك البلد الذي حطَّ المؤلف فيه رحله، حتى إن القارئ ليخال نفسه أنه معه في تطوافه وحلّه وترحاله، هذا فضلاً عما اشتمل عليه الكتاب من معلومات ذات صلة بتاريخ البلد، إبتداءً من تاريخ استعماره، بل قل تاريخ استعباد سكانه، وانتهاءً باستقلاله...

وبعدُ ماذا أقول فيك أنت، يا أيها المسافر الضارب بعيداً في الآفاق وفي الفجاج، المفتون بالكلمة، المترفّع عن كل ما يشين أو يخدش التزامك بالقيم الخلقية ، والأخرى الدينية،

ألم تنجُ بنفسك، كما جاء في تضامين كتابك، عن الوقوع فيما وقع فيه ذلك الطائح الحظّ صاحبك(فريد) لمّا أن راح يراقص إحداهن على أنغام تلك الآلة الموسيقية البدائية المسماة (بانكون ماكوما)، فما كان منك إلاّ أن غادرت المكان من قبل أن تحوّلك، وبحسب تعبيرك، نار إيقاعات أغنية (هبّت، هبّت، هبّت النار... النار... النار) الى رماد تذروه الرياح في كل ناح! ؟

ثم ألم تنجُ بنفسك ثانية فتستعصم كما أن حكيت لنا حكاية تلك السيدة البريطانية التي علقتك وهوتك منذ اللحظة التي دخلت فيها المحّل الذي كنت تعمل فيه، فلما أن أقفلت راجعة بحجة أنها نسيت مظلّتها عندك، وقالت لك أخشى أن لا أكون نسيت نفسي في محلك كما نسيت مظلّتي، فما كان منك إلاّ أن انتصبتَ واقفاً، ورحت تلمس الماء لتتوضأ استعداداً لحلول أذان وقت المغرب، وأداء الصلاة هرباً من إسقاطات النفس البشرية، ومن وقوعك في حِبالات تلك الخَوْدِ الناعمة الساحرة الجفن، ما جنّبك الوقوع في حِبالات ذلك الرجيم الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس!؟

فأنا، يا إسماعيل، ومن وحي هذه الحادثة والحادثة التي سبقت، وبعد أن طوّفت ما طوّفت بكتابك فصلاً فصلاً، وسطراً سطراً، وكلمةً كلمةً... أزعم أني أدركت الآن لماذا يحلو لبعضهم أن ينادوك حيناً باسم (الحاج إسماعيل)، وأحايين أخرى، وإن لم تلُفَّ، ولم تكوّرَ عمامةًعلى رأسك ، باسم (الشيخ) يا إسماعيل...